تيمورلنك ومحنة دمشق ٨٠٣هـ / ١٤٠١م

د. علاء محمود قداوي (*)

ينتمي تيمورلنك إلى بيت من أشراف المغول، وكان جده الخامس قراجار من قادة جنكيزخان، ولد في إحدى قرى كش من أعمال بلاد ما وراء النهر، وفي شبابه التحق في خدمة توغلق تيمور حاكم بلاد ما وراء النهر، ثم ما لبث ان انقلب عليه واخضع سمرقند لحكمه، وفي حدود سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٤م غدا تيمور سيداً بلا منازع على بلاد ما وراء النهر بعد ان تمكن من جميع معارضيه، وكان أخرهم الياس خواجة الذي كان ينافسه على حكم البلاد(١).

لم تتوقف طموحات تيمور عند حدود بلاده بل كان يريد لنفسه ان يكون الحاكم الأوحد على العالم وكان يعتقد (ان الربع المعمور بأجمعه لا يستحق ان يتنازع من اجله سلطانان)(٢). كما كان يعتقد بأنه صاحب الحق الشرعي في وراثة إمبراطورية أسلافه المغول التي خلفها جنكيزخان، ولهذا اندفع من اجل ان يستعيد كامل أراضي هذه الإمبراطورية، فكان يضرم نيران الحروب سنوياً في طول

(*) كلية الآداب / جامعة الموصل

(١) عن حياة تيمور وحكمه لبلاد ما وراء النهر، انظر التفاصيل، يكوبوفسكي، أ. يو: تيمورلنك (وصف موجز لسيرة حياته) مجلة دراسات (تصدرها الجامعة الأردنية) المجلد الخامس العدد السابع تموز ١٩٨٨ ص ١١٠ _ ١١٤.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٨.

البلاد وعرضها من موسكو إلى نهر الكنج في بلاد الهند، ومن حدود الصين شرقا حتى بلاد الشام غربا[٣]. وكان إستهدافه لبلاد الشام قد جاء في أعقاب سيطرته الكاملة على بلاد إيران وشمال الهند.

ففي سنة ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م قاد جيوشه من شمال الهند باتجاه العراق وبلاد الشام في أعقاب تلقية خبر وفاة برقوق سلطان الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام الذي وافته المنية في ١٥ شوال سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م. وكان تيمور قد ناصب برقوق العداء بسبب قبول برقوق وفادة السلطان احمد الجلائري حاكم بغداد الذي كان قد لجأ إلى القاهرة في أعقاب غزو تيمور لبغداد سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م وتمكين برقوق للسلطان احمد الجلائري من استعادة بغداد التي حكمها باسم المماليك، بعد ان طرد الحامية التيمورية منها سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م فضلاً عن رفض برقوق طلباً لتيمور بتسليم الأمير التيموري اطلميش الذي كان قد وقع في كمين مملوكي في أثناء غزو تيمورلنك لإقليم الجزيرة الفراتية التابعة للمماليك سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م[٤].

تقدم تيمور بقواته أولاً نحو العراق فأستعاد احتلاله لبغداد بسهولة في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م ومنها توجه نحو حلب التي كان قد فرّ إليها السلطان احمد

(٣) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلة إلى العربية، نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ط٧ دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧ ص ٤٢١.

(٤) ابن تغري، برودي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: النجوم الزاهدة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ج١٢ ص٤٣، ٢١٩-٢٢٠.

قداوي، علاء محمود: العراق في القرن التاسع الهجري، أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدمة إلى عمادة كلية الآداب ـ جامعة الموصل ١٩٩٤ ص ٧٠-٧١، ٧٤، ٧٨.

الجلائري واتباعه على ان نائب حلب المملوكي ومعه نواب الشام برزوا بقواتهم التي تقدر بثلاثة آلاف فارس فأصطدموا بقوات تيمور الذي انزل بهم هزيمة ساحقة في ١١ ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ / ٣٠تشرين الثاني ١٤٠٠م ثم اقتحم حلب فأشعلت عساكره فيها النيران وأخذت في الأسر والنهب والقتل، وعمل تيمور من رؤوس القتلى منائر عدة وكانت تزيد على عشرين ألف رأس. ثم رحل تيمور من حلب بعد ان أقام فيها شهراً قاصداً دمشق(٥).

اهتزت مصر لأنباء الهزيمة وما جرى لأهل حلب، وخرج السلطان المملوكي فرج الذي كان قد حل محل والده المتوفي برقوق على سدة الحكم على رأس الجيش المملوكي من القاهرة ومعه الخليفة والقضاة، فدخل دمشق في السادس من جمادي الأولى سنة ٨٠٣هـ / ٢٥ كانون الأول ١٤٠٠م واخذ يطمئن السكان الذين كانت قد اضطربت أحوالهم لما سمعوه عن أعمال تيمور في حلب، كما اخذ يقوي أسوار المدينة، ويستعد لمواجهة تيمورلنك الذي كانت قواته قد نزلت أطراف دمشق. وفي ١٩ جمادي الأولى سنة ٨٠٣هـ / ٦ كانون الثاني ١٤٠١م حدثت المواجهة بينهما ولم تستطع القوات المملوكية الثبات بسبب جسامة الخسائر التي اضطرها على الانسحاب إلى داخل دمشق(٦).

(٥) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين احمد: أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٧١ ط٢ ص ١٣٤-١٣٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٢٢٢ _ ٢٢٥.

(٦) المصدر نفسه ج٢ ص ١٣٥- ١٣٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٢-٢٣٥.

وبدلاً من إعادة تنظيم الجيش لمواجهة تيمور ثانية انشغل بعض الأمراء بالاقطاعات والوظائف والسلطة في حين انشغل البعض الآخر في التآمر على السلطان لعزله وتعيين لاجين الجركسي بدلاً عنه وعندما علم السلطان بأمر المؤامرة ترك دمشق مع عدد من مؤيديه هارباً إلى القاهرة وذلك في ٢١ جمادي الأولى / ٨ كانون الثاني، ولما اكتشف بقية أمراء الحملة هرب السلطان لحقوا به جماعات، جماعات[٧] تاركين الدمشقيين يواجهون مصيرهم المحتوم.

علم تيمور بأمر هروب السلطان المملوكي فرج عن طريق أحد جواسيسه فأمر حفيده أبا بكر بمحاصرة دمشق وان يمنع أي شخص من الفرار منها، وبعث قوة من جيشه لتعقب الفارين، فساروا في أثرهم وتمكنوا من قتل واسر عدد كبير منهم وعادوا إلى دمشق لينظموا إلى القوة الرئيسة التي كانت قد أطبقت الحصار على المدينة بعد ان كانت قد نهبت القرى والبساتين المحيطة بها[٨].

لم يكن موقف سكان دمشق متخاذلاً بعد هروب سلطانهم، إذ انهم لما اكتشفوا هروبه غلقوا أبواب المدينة، وصمموا على مواصلة المقاومة، إذ وقع قتال عنيف بينهم وبين الغزاة على أسوار المدينة قتل في أثره زهاء ألف مقاتل من الغزاة حتى اضطر هؤلاء إلى التراجع عن الأسوار[٩].

---

(٧) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب ١٩٧٢ ج٣ ق٣ ص ١٠٤٤-١٠٤٥، ابن حجر: أبناء الغمر ج٢ ص ١٣٧.

(٨) الشامي، نظام الدين: ظفرنامة، بسعي واهتمام وتصحيح فلكس تاور براغ ١٩٣٧ ص ٢٣٣، ابن حجر: أبناء الغمر ج٢ ص ١٣٧.

(٩) المقريزي: السلوك ج٣ ق٣ ص ١٤٦، ابن اياس، محمد بن احمد: تاريخ ابن اياس المسمى (بدائع الزهور في وقائع الدهور) ط١، مطبعة بولاق بمصر ١٣١١هـ ج١ ص ٣٣١.

أدرك تيمور صلابة الدمشقيين فلجأ إلى مخادعتهم، فأرسل يطلب المفاوضات في الصلح، فوجد الدمشقيون في هذا الطلب فرصة للخلاص من عواقب الحصار، فاختاروا القاضي تقي الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي مفاوضاً عنهم، إذ كان يجيد الفارسية والتركية، فأنزلوه من السور، وفي صحبته خمسة من علماء دمشق من بينهم ابن خلدون، تم ذلك على الرغم من معارضة نائب قلعة دمشق[١٠].

استقبل تيمور الوفد بترحاب وقال لهم ان دمشق (بلدة الأنبياء والصحابة وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن أولادي) وزار مع الوفد قبور أم سلمة وأم حبيبة زوجتي الرسول صلى الله عليه وسلم وبلال الحبشي رضي الله عنه ووعد بناء ضريحين لهما[١١] كما دخل في حوار مع ابن خلدون فسأله عن سبب مجيئه من بلاد المغرب إلى مصر وعلاقة برقوق به واستفسر منه عن جغرافية المغرب وأمره ان يكتب له وصفاً جغرافياً عنها، فأنجز له هذه المهمة بعد أيام من المقابلة، وكان ابن خلدون قد كسب احترام تيمور عندما أشار عليه بأنه سلطان العالم وان علماء المغرب وصوفيته قد تنبؤا بظهوره وانه قابل عدداً منهم ولهذا فانه كان متلهفاً للقائه[١٢] وأشار بان (لله المنة، إذ امتد بي زماني ومنّ الله

(١٠) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٢٣٩، ابن اياس: بدائع الزهور ج١٢ ص ٣٣١.

(١١) الشامي: ظفرنامة ص ٢٣٣، المقريزي: السلوك ج٣ ق٣ ص ١٠٤٦، ابن اياس: بدائع الزهور، ج١ ص ٣٣١.

(١٢) ابن خلدون، عبدالرحمن: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، منشورات دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩ ص ٤١١-٤١٤، ٤١٦.

علي بان أحياني حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة، والمسلك شريعة السلطنة على الطريقة، فإذا كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف، فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف)[١٣].

استغل ابن خلدون علائم السرور والإعجاب لتيمور به فطلب منه بان لايتعرض لرجال الإدارة وان يقرهم في وظائفهم إذ قال له (أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي فقال: قل الذي تريد افعله لك ... فقلت هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر من القراء والموقعين والدواوين والعمال صاروا إلى ايالتك والملك لا يغفل مثل هؤلاء فسلطانهم كبير وعمالاتكم متسعة وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صفوف الخدم اشد من حاجة غيركم فقال وما تريد لهم؟ قلت مكتوب امان يستأمنون إليه ويعولون في أحوالهم عليه، فقال لكاتبه اكتب لهم بذلك فشكرت ودعوت وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الامان وختمه بخاتم السلطان)[١٤] كما أعطى لابن مفلح كتاب أمان لأهل دمشق مع قائمة بأسماء من استقرت عليهم الوظائف[١٥].

تركت هذه المقابلة في نفس ابن مفلح انطباعا حسنا عن تيمو فرجع إلى المدينة واخبر أهلها بما شاهد وسمع، وقرأ عليهم كتاب الأمان على منبر الجامع الأموي ودعاهم للكف عن القتال وإجراء الصلح فوافقوه، في حين رفض ذلك نائب

(١٣) ابن عربشاه، شهاب الدين احمد بن محمد الدمشقي، عجائب المقدور في أخبار تيمور، ط١ مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٥هـ ص ١٠٧-١٠٨.

(١٤) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص ٤٢٢-٤٢٣.

(١٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢ ص ٢٤٠.

القلعة الذي هدد بحرق المدينة ان لم يتراجعوا عن الصلح فلم يلتفتوا إلى تهديده، وفتحوا الباب الصغير لأحد أمراء جيش تيمور الذي اخذ مكانه بجوار الباب بحجة الحيلولة دون دخول العساكر إلى المدينة إلا بأمر تيمور(١٦).

وما ان اطمأن تيمور لسكون أهل دمشق وركونهم إلى الامان الذي منحهم إياه، طلب من ابن مفلح جباية ضريبة الصلح، ومقدارها ميلون دينار مع أموال السلطان فرج وأمرائه والتجار الذين فروا من دمشق، فاستجاب ابن مفلح مع أعيان المدينة الذين كانوا قد عاودوا مقابلته بناءً على طلبه فخلع عليهم واقرهم على وظائفهم وأمرهم بالانصراف إلى دمشق(١٧). وإبان ذلك كانت القوات التيمورية تدخل دمشق أفواجا أفواجا، وبعدها دخل تيمور المدينة، واتخذ عدة إجراءات فجعل شاه ملك نائباً عنه عليها كما عين القضاة والإداريين وأمر بصلب عدد من جنده الذين قاموا بأعمال نهب بعد دخولهم دمشق، فوقع فعله هذا في نفوس الدمشقيين موقعاً حسناً وصلى الجمعة بالمسجد الأموي، وخطب له في المسجد قاضي القضاة محيي الدين محمود الحنفي، وبعدها أمر تيمور جنوده بحصار قلعة دمشق التي استسلمت بعد شهر من المقاومة(١٨).

---

(١٦) المقريزي: السلوك ج٣ ق٣ ص ١٠٤٦-١٠٤٧، ابن حجر: أنباء الغمر ج٢ ص ١٣٧
حسين: تاريخ الغزو التيموري ص ٣٠٦.

(١٧) المقريزي: السلوك ج٣ ق٣ ص ١٠٤٧، ١٠٤٩، ابن اياس: بدائع الزهور ج١ ص ٣٣٢-٣٣٣.

(١٨) المقريزي: السلوك ج٣ ق٣ ص ١٠٤٧-١٠٤٨، ابن حجر: أنباء الغمر ج٢ ص ١٣٨، ابن عرب شاه: عجائب المقدور ص ٢١٦.

جمع ابن مفلح مبلغ ضريبة الصلح فبعثه إلى تيمور ولكن الأخير رفض استلامه مطالباً بعشرة ملايين دينار، فاضطر ابن مفلح وصحبه على إعادة الجمع إذ فرضوا على عقاراتها كلها اجرة ثلاثة اشهر وألزموا كل فرد من سكانها بدفع عشرة دراهم، وفرضوا الضرائب على الأوقاف أيضا فاخذوا مئة ألف درهم من الأوقاف المخصصة للجامع الأموي، وقد استعمل العنف في الجباية، وبعد ان سلموا المبلغ إلى تيمور مع أموال الهاربين والسلاح[١٩] طلب منهم تيمور ان يدونوا له جميع خطط دمشق وحاراتها، ففعلوا ذلك فدفعها إلى أمرائه فتسلم كل أمير حارة منها فانطلق هؤلاء مع اتباعهم إلى الأقسام المخصصة لهم وانزلوا بالسكان من اجل استخراج الأموال أقسى أنواع العذاب كالضرب والعصر والحرق بالنار وقد وصف بعض المؤرخين أساليب التعذيب، منها انهم كانوا يضعون الحبل بكتفي الرجل ويلونه بالعصا حتى تخلع الكتفان أو ان يذر الرماد في انف المعذب ثم يعلق بإبهام يديه في سقف الدار وتشعل النار تحته حتى تكاد تخرج روحه فيخلى عنه ثم تعاد العقوبة حتى يستخرج ما لديه من أموال، كما وصفوا لنا أنواع العذاب الذين ارتكبوه بحق النساء والأطفال. واستمرت عمليات التعذيب على هذا المنوال مدة تسعة عشر يوماً كان آخرها في ١٨ رجب سنة ٨٠٣هـ / ١٥ آذار ١٤٠١م فهلك بسبب ذلك آلاف من سكان دمشق وسلبت أموالهم وبعد ذلك أطلق تيمور العنان لجنده من المشاة حرية التصرف على هواهم، فدخلوا الأحياء السكنية والمساجد والأسواق والمؤسسات الحكومية وسيوفهم بأيديهم فنهبوا ما تبقى من أموال وآلات وسبوا النساء وساقوا الأولاد والرجال وتركوا من عمره خمس سنوات فما دون وما كادوا يفرغون من هذه الأعمال حتى أمرهم تيمور (بطرح النار في المنازل وكان

(١٩) المقريزي: السلوك ج٣ ق٣ ص١٠٤٧، ١٠٤٩، ابن اياس: بدائع الزهور ج١ ص ٣٣٢-٣٣٣.

يوما عاصف الريح فعم الحريق البلد كلها، وصار لهيب النار يرتفع إلى السحاب وعملت النار ثلاثة أيام... وقد احترقت (المدينة) كلها ... وذهب مساجدها ومدارسها ومشاهدها وسائر دورها وقياسرها وأسواقها وحماماتها وصارت أطلالا بالية ورسوما خالية قد أقفرت من السكان وامتلأت أرضها بجثث القتلى ولم يبق بها دابة تدب إلا أطفال يتجاوز عددهم الآلف فيهم من مات وفيهم من يجود بنفسه)[٢٠]. وكانت اكثر الأماكن تضررا من الحريق المسجد الأموي الذي سقطت سقوفه وزالت أبوابه وتفطر رخامه ولم يبق غير جدرانه قائمة وانهارت المنارة الشرقية تماما[٢١].

وقد حاول الشامي المؤرخ الرسمي لتيمور ان يبعده من مسؤولية حرق المسجد الأموي عندما أشار بأن حريق المسجد قد وقع بمحض الصدفة، وان تيمور أمر نائبه بدمشق شاه ملك بالحفاظ على الجامع الأموي من الحريق، ولكن جهوده ذهبت سدى، إذ امتدت النيران إليه وانهارت منارته الشرقية[٢٢]. وهذا الكلام لا يؤيده باقي المؤرخين الذين يضعون المسؤولية الكاملة في حرق المسجد على تيمور، ومن هؤلاء المقريزي وابن خلدون وابن تغري بردي وابن اياس[٢٣].

(٢٠) المقريزي: السلوك ج٣ ق٣ ص ١٠٥٠، ١٠٥١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٢٤٤-٢٤٥، ابن اياس: بدائع الزهور ج١ ص ٣٣٣.

(٢١) المقريزي: السلوك ج٣ ق٣ ص ١٠٥١، ابن تغزي بردي: النجوم الزاهرة ج١٢ ص٢٤٥-٢٤٦.

(٢٢) ظفرنامة، ص ٢٣٦.

(٢٣) السلوك ج٣ ق٣ ص ١٠٥١، أنباء الغمر ج٢ ص ١٣٨، التعريف بابن خلدون ص ٤١٧، النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٢٤٥ بدائع الزهور ج١ ص ٣٣٤.

اما عن سبب حرق المسجد الأموي فيذكر شلتبيركر بأن أحد القضاة قد لجأ إلى تيمور وطلب منه الامان لاتباعه، فأمر بالنزول في المسجد الأموي فلما اجتمع فيه زهاء ثلاثين ألف نسمة غلق عليهم الأبواب ووضع أكواما خشبية حول المسجد وأضرم فيها النيران فاحترق المسجد ومن فيه[٢٤] كما أمر في الوقت نفسه بسوق الخيل على عشرة آلاف طفل كانوا قد جئ بهم إليه بعد ان فقدوا ذويهم فماتوا جميعا ولما لامه بعض قواده على ما فعله بالمسجد الأموي وبقتله الأطفال أجابهم (ما نزل على قلبي فيهم رحمة) ثم عقب (أنا غضب الله في أرضه، يسلطني على من يشاء من خلقه)[٢٥].

ان ما واجهته دمشق على يد تيمورلنك لم تكن مجرد كارثة حربية، وانما كانت كذلك كارثة حضارية كان لها اثر بالغ في انحطاط فنونها وتأخرها إلى أجيال ففضلا عن أعمال القتل والتدمير كان تيمور قد أفرغها من أرباب الصنائع والحرف من النساجين والخياطين والنجارين والتجار والنقاشين والبياطرة والخيمية والقواسين والصباغين وصانعي الأسلحة فضلا عن أعداد كبيرة من علماء الشام وأطبائها رحلهم جميعا إلى بلاد ما وراء النهر ولا سيما عاصمته سمرقند[٢٦].

---

(24) Schiltberger: The bandage and Travels of Johann Schilterger (1396-1427) trans from latin by Telfar (London, 1970) p, 23.

(٢٥) ابن اياس: بدائع الزهور ج١ ص ٣٣٥.

(٢٦) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ٢٣٩-٢٤٠، ٢٢٤، ٢٢٦، ٤٤٦. حسين، تاريخ الغزو التيموري.

مكث تيمور مع قواته بدمشق حوالي ثمانين يوما ثم غادرها في الثالث من شعبان سنة ٨٠٣هـ / ٢٠ آذار ١٤٠١م بعد ان كان قد أرسل الأمير سودون نقيب قلعة دمشق إلى القاهرة ومعه كتاب من تيمور إلى السلطان فرج، أبدى تيمور في هذا الكتاب رغبته في الصلح على قاعدة تبادل الأسرى، فوافق فرج على شروط الصلح وذلك بعد استشارة أمرائه، وهذه الموافقة جاءت لاعتبارات داخلية تتمثل بحالة الانقسام في صفوف المماليك وضعف قدراتهم العسكرية التي لا تؤهلهم لخوض معركة جديدة مع تيمور، كما ان تيمور كان يستهدف من وراء الصلح التفرغ لمواجهة خصمه اللدود السلطان العثماني بايزيد يلدرم، فحدث تبادل للأسرى وعادت أسرى المماليك ومعهم هدايا من عند تيمور، ثم غادر تيمور الشام[٢٧] وبمغادرته انطوت صفحة كانت من اشد الصفحات ايلاما لبلاد الشام بعامة ومدينة دمشق بخاصة.

(٢٧) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١ ص ٣٣٥-٣٣٦. حسين: تاريخ الغزو ص ٤٢٢-٤٢٣.

Abstract

Timur-Leng and the Crisis of Damascus

Dr. Qaddawi, A. M.(*)

This paper studies the Timur-Leng invasion on AL-Sham in 1401. It explores the motives of the invasion, namely the ambition of Timur-Leng to set up an Emperor that would include large parts of the world including AL-Sham which was under the control of the Mamelukes.

Damascus was one of the cities of AL-sham which faced the occupation, but soon it was occupied and undergone various forms of torture, murder and destruction. This occupation was not only a military catasrophy only but a cultural one as well that resulted in Artistic decline and backwardness of Damascus.

(*) College of Arts, University of Mosul.